بثينة خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

نريده خبزا، لا بسكويتا!

إستطاع الاستعمار الغربي بالتعاون مع ثلة من شعراء الحداثة أن يقتلعوا البنى التحتية للثقافة والهوية العربية من جذورها، ساعدهم في ذلك انبهار أو انبطاح نفر ممن يحسبون على فئة المثقفين

■ أعلم أنني قد أفتح على نفسي باباً واسعاً من الانتقادات والهجوم غير العاديين، لكن حسبي أن ثمة من يشاطرني رأيي بحماس لا يقل حجمه عن حماس أولئك المدافعين عن نقيضه..

وأرى أنه من المناسب أن أورد حكاية طريفة قبل الخوض في لب الموضوع، مفادها أنه كان لأحد كبار علماء اللغة غلام يخدمه، وذات يوم سأل العالم غلامه: "أسقعت العتاريف؟" فلم يعرف الغلام معنى الجملة ولكنه استحى أن يجيب بعدم معرفته، فرد قائلاً: "زقفيلم"، ولم يعرف العالم وهو المتبحر في شؤون اللغة معنى كلمة "زقفيلم"، فسأل غلامه: "وماذا تعني بزقفيلم هذه؟"، أجاب الغلام: "وماذا تعني بأسقعت العتاريف؟" رد العالم: "أنا أردت، هل صاحت الديكة كي أتوضأ لصلاة الفجر"، فقال الغلام: "أنا أردت، لم تصح"!

إذاً استطاع الغلام بحيلة ذكية ودهاء وقتي أن يتملص من المأزق الحرج الذي اندس فيه، وذلك بأن ابتكر خدعة لغوية توحي للمتلقي أنه عارف بمكنونات اللغة وعلى قدر من العلم والمعرفة، بدلاً من الخروج بمظهر الغبي أو الجاهل أو كالأطرش في الزفة" .. وهكذا نلحظ لدى البعض ممن استعصى عليه أن يكتب شعراً مما أتى به الأولون من ألفاظ جزلة، متينة ذات دلالات لغوية عميقة، مع عدم رغبتهم في الاعتراف بجهلهم، أنهم ابتكروا حيلة لفظية، فيها من الدفاع عن موقفهم ما أصبح متعارفاً عليه لدى العامة والخاصة تحت اسم "شعر الحداثة" أو "القصيدة النثرية".

وفي الحقيقة أن سهولة الوصول إلى القصيدة الحداثية أو النثرية، جعلت من اليسير على البعض معاشرتها والنزول إلى دركها، فكثر على أثرها في عالمنا العربي "الشعراء المحدثون"، ممن اتخذوا لفظة "زقفيلم" وسيلة دفاعية تنجيهم من الغرق في شر أعمالهم، فهل تصلح "زقفيلم" ما أفسده شعراء الحداثة من تخريب للذائقة العربية؟!

لقد أستطاع الاستعمار الغربي بالتعاون مع ثلة من شعراء الحداثة أن يقتلعوا البنى التحتية للثقافة والهوية العربية من جذورها، ساعدهم في ذلك انبهار أو انبطاح نفرٌ ممن يحسبون على فئة المثقفين - وتلك قصه وغصة أخرى - لمظاهر وتأثيرات الإبداع الفكري الغربي، فشرعوا عن جهالة منهم أو لعله قصد - وتلك طامة كبرى - إلى تغافل أصول الشعر من حيث التكوين "كالبحور، القافية، الأوزان، الجرس الموسيقي، المضمون، وكذا القضية / الحدث" والأنكأ من ذلك أنهم أغفلوا قضية النطق بلسان ديوان العرب، وكثيراً ما تجد هؤلاء الشعراء المحدثين يتنقلون بالاستعانة بمترجمين لأعمالهم الأدبية أو بياناتهم الخاصة - إن جاز لي التعبير - .

يبدو أن ثمة مؤامرة خطيرة (قديمة، جديدة) للإطاحة بالفكر والذائقة العربية، لست أدري من المستفيد منها بالدرجة الأساس؟ لكني على يقين تام بأن حجم تكاليفها باهظة جداً، سيقع عبئها على أجيالنا القادمة وعلى كل غيور وعاشق لتراثه الأدبي الزاخر.

إنها ليست رجعية كما يروج لها مؤيدوها، أو تطرفاً في التعامل مع اللغة، ومع خيال الإنسان العربي الخصب، لكنه حق أصيل في التشبث بفن راق قلما تجد له مثيلاً، حق لن تجدي الببغائية معه سوى مزيد من الظلامية والهلاك اللذين تعانيهما الأمة العربية، وقد كان رحمه الله - العقاد - حينما يعرض عليه نص مما يسمى شعراً حديثاً، يقول: "يحول إلى لجنة النثر، كي تبت في أمره".

يصدح شعراء الحداثة أن كتاباتهم تشكل ثورة، في محاولة منهم إلى كشف عوالم أكثر صدقاً وواقعية، وأن الشعر الحقيقي من وجهة نظرهم يكمن في الجوهر، وعليه قد تجد الشعر في النثر أو بالعكس، ويعرف الشاعر الفرنسي المعاصر "رينيه شار" الشعر بقوله: "الشعر ثورة، تستهدف الكشف عن عالم يظل أبداً في حاجة إلى الكشف"، لكن المتنبي كان ثائراً هو الآخر، وأبي نواس، ديك الجن، ابن الرومي، الشنفرى، جميعهم رفعوا لواء التغيير وكسر الحواجز الاجتماعية، الفكرية والسياسية، دون أن يخلوا بآداب اللغة.

يجرنا الحديث فيما يجرنا إلى وظيفة الشعر الحقيقية بالمعنى الزمني - وليس الفني -، هل صحيح أن وظيفة الشعر قد انتهت، وأن الثورة الصناعية بما صاحبها من اكتشافات علمية وتكنولوجية أسهمت في تقويض وتقليص الرسالة الكامنة وراء الشعر ؟ وفي سياق آخر، إلى أي حد نستطيع أن نراهن على مقولة "أدونيس" بموت اللغة العربية، ألا يعني ذلك أن مستقبلاً حالكاً ومظلماً ينتظر الشعر العربي؟ هل يكتب "أدونيس" بلغة ميتة إذاً؟ إذا كان كذلك، فإنه لن ينتج إلا أدباً ميت، ولن يستسيغه إلا الأموات!.

أرى أن استنهاض الأمة وتذكير الأجيال القادمة بأهمية وغزارة موروثنا الأدبي الحافل، خطوة مهمة تتبعها خطوات نحو تفعيل علاقة الإنسان العربي بلغته الأم أولاً واعتداده بها ثانياً، ومن ثم محاولة الإتيان بها - مسابقة أمير الشعراء التي تبثها قناة أبو ظبي الفضائية، نموذجاً - أما إذا ظل الشعر حبيس فئة بعينها (شعراً نخبوياً، تجريبياً)، فإنه لن يجني سوى التخريب، ومما يؤخذ على الشعر الحديث تطرفه الإيمائي، وانني أجزم أن كثيراً من كتبته غير مدرك لحقيقة ما يقول، وعليه نقول، نريد شعراً كالخبز، يستسيغه و يشعر بقيمته الغني والفقير، نريده خبزاً، لا بسكويتاً، كي تستمر الحياة! ■

B7747@HOTMAIL.COM